

في التاريخ



حوار الحضارات، أم صدام الحضارات، حوار أديان، أم حوار ثقافات؟

هذه الأسئلة تنور في الأجواء السياسية والثقافية المتفاعلة في عالم اليوم الذي تشتعل فيه الحروب والمنازعات في كل أرجاء الدنيا، وتبحث عن الإجابة المناسبة،

المسلمون وأوروبا.. التطور التاريخي لصورة الآخر

وسط ضجيج الأيديولوجيا الجديدة التي تحاول السيطرة على العالم، من خلال رفع شعارات العولمة، وصراع الحضارات، ومحاربة الإرهاب الإسلامي، وما إلى ذلك.

ولأننا نؤمن بوحدة الحضارات الإنسانية التي امتدت حلقاتها منذ البداية في رحلة الإنسان، التي لم تتم بعد، عبر قرون الزمان، فإننا نقدم هذه الدراسة الأولية بشقيها، عن صورة الآخر لدى كل من الأوروبيين والمسلمين في تطورها التاريخي، حتى نهاية العصور الوسطى (القرن السادس عشر الميلادي تقريباً)، ومفهوم التسامح وتطوره التاريخي أيضاً في الفترة نفسها.

فالحضارة الإنسانية التي نحيا في ظلها اليوم تدين بالكثير لإنجازات الحضارات السابقة زمنياً من ناحية، كما أن جميع الحضارات كانت تدين للحضارات السابقة عليها من ناحية أخرى، وهذا يعني أن جميع البشر ينهلون من منبع واحد، وإن تغيرت مواقفه الجغرافية.

فالحضارات القديمة (مصر، والعراق القديمة، والصين، والهند القديمة) أثرت بشكل أو بآخر في الحضارات التي جاءت بعدها، مثل (اليونانية، والهيلستية، والرومانية)، وتركت بصماتها على الحضارة العربية الإسلامية التي استفادت أيضاً من



• تأليف: د. قاسم عبده قاسم

• الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١، ٢٠١٢م

• عرض: د. عبد الرحمن بدوي

عندما ظهرت المسيحية للمرة الأولى داخل الإمبراطورية الرومانية لم تعرها السلطة اهتماماً كبيراً، حيث تصور البعض أنها مذهب يهودي جديد من المذاهب المنشقة، وعلى الرغم من أن الدولة الرومانية لم تعترف في هذا الدور المبكر بالمسيحية ديانة مشروعة، فإنها كانت متسامحة بشكل عام إزاء المسيحيين، ولم تكن تتدخل في شؤونهم كثيراً، وفي هذا الدور كان رؤساء الجماعات المسيحية في كل مكان، يحاولون الحفاظ على كيان جماعاتهم.

فقد كان هناك ميراث ضخم من المرارة والشك المتبادل بين أتباع الكنائس المسيحية، حيث كانت الطوائف التي تتبع كنيسة الدولة تحظى بمساعدتها بطبيعة الحال، وعلى الجانب الآخر كانت الكنائس المخالفة تعاني من الاضطهادات الدموية العنيفة ومن مصادرة أملاكها.

كانت هذه بشكل عام ملامح صورة العالم المسيحي عشية حركة الفتوح الإسلامية، وما تلاها من تغيرات.

وفي خاتمة هذه الخلافات بين تلك الفصائل، يذكر المؤلف أنه كان من الطبيعي أن تتفاوت ردود أفعال رجال الكنيسة في المناطق التي فتحها المسلمون في القرن السابع الميلادي، وكان طبيعياً أيضاً أن تكون مواقفهم نتيجة الجهل بحقيقة الدين الإسلامي أحياناً، وبرغبتهم في تشويه حقائقه أمام رعاياهم أحياناً أخرى، ومن اللافت للنظر أن جميع الطوائف المسيحية رأوا في قدم المسلمين عقاباً من الرب، جزاء خطاب أصحاب المذاهب المسيحية المخالفة.

ومن ناحية أخرى، فإن هذه الكتابات على الرغم من انحيازها قد أوضحت بعض الحقائق،

موروثات الفرس والسوريين والهنود والصين، فضلاً عن الحضارات الأقدم عمراً، وحين بدأت أوروبا تنفض عن نفسها غبار التخلف الذي عانت منه كثيراً في العصور الوسطى، اتجهت إلى الحضارة العربية الإسلامية، تتهل من معينها حتى قوي عودها، وصارت الحضارة العالمية بإنجازاتها التي كفلت لها التفوق والسيادة والريادة، في عالمنا المعاصر، لاسيما بعد أن تمزقت بشقها الأمريكي.

وهذه الدراسة تحاول أن تلقي الضوء الكاشف على جانب من الموضوع، حيث تتناول في شق منها موقف المسيحيين الشرقيين عامة، من حركة الفتوح الإسلامية، والتعامل مع الدين الإسلامي والمسلمين أيضاً، وذلك بوضع نصوص كاملة، أو شبه كاملة، لكي نقف على ملامح الصورة التي كانت لدى الذين كتبوها آنذاك.

ومن المهم ملاحظة أن هذه النصوص تعبر عن آراء رجال الكنيسة فقط، وفي الشق الثاني من هذه الدراسة نتناول التطور التاريخي لصورة الآخر، في كل من أوروبا، والعالم الإسلامي، تحاول أن تبرز الاختلاف بين مفهوم التسامح في الثقافة الغربية عموماً، وفي الثقافة العربية الإسلامية قديماً وحديثاً، وكيف أنه لا يزال يحكم موقف كل منهما من الآخر حتى في أيامنا هذه.

وجاء تقسيم الدراسة في ثلاثة أقسام هي: القسم الأول: المسيحيون والفتوح الإسلامية، والقسم الثاني: أوروبا والعالم الإسلامي، والقسم الثالث: مفهوم التسامح بين ثقافتنا أوروبا والعالم الإسلامي.

القسم الأول: المسيحيون والفتوحات

الإسلامية: بيزنطة والشرق الأوسط:

المشهد المسيحي قبل الفتوح الإسلامية:

الحضارة الإنسانية اليوم تدين بالكثير من الإنجازات للحضارات السابقة زمنياً



المدن القديمة مثل: قنشرين وحلب بسوريا، بيد أن الوضع لم يلبث أن تغير بمضي الزمن، فقد زاد عدد المتحولين إلى الإسلام من السكان المحليين، كما زاد عدد العرب الذين جاؤوا للاستقرار في هذه البلاد.

عندئذ كان لابد من الاختلاط والامتزاج الذي أدى إلى التفاعل بين ما جاء به الإسلام، واللغة العربية من جهة، والموروث الثقافي لأبناء البلاد المفتوحة من جهة ثانية، ولم يمارس الفاتحون المسلمون ضغطاً على أبناء هذه البلاد، لكي يعتنقوا الإسلام، حيث كان اعتناق الإسلام يوفر العديد من الفرص الطيبة للانضمام إلى الطبقة الحاكمة، ومن اللافت للنظر أن السلطة الإسلامية أقامت علاقات ناجحة مع رؤساء الكنائس المحلية التي أصبحت تحت سلطانهم.

ومن ناحية أخرى، كانت هناك عدة جوانب في الإسلام جعلت التعامل معه ممكناً بالنسبة للنصارى، فقد كان له نبي وله كتاب مقدس، وله أشكال راسخة في الصلاة والصيام والحج، كما كانت قوانين الأسرة والموارث واضحة، وكان الإسلام يعترف بالأنبياء السابقين جميعاً، ومنهم عيسى ابن مريم (عليه السلام)، كما كان يحترمهم جميعاً، ويجل السيدة العذراء، ومنذ البداية كان الإسلام، باعتباره ديناً، مكماً للديانات التوحيدية السابقة.

بطريقة غير مباشرة، مثل مساعدة السكان المحليين للمسلمين، واعتناق بعضهم الإسلام في السنوات الأولى بعد الفتح الإسلامي، وكانت هناك مؤشرات على أن المسيحيين في مصر وبلاد الشام، كان لديهم بالتأكيد ما يجعلهم يكرهون السلطات البيزنطية، وعلى أنهم ساعدوا الفاتحين المسلمين بالفعل، ومن ناحية أخرى أيضاً كانت عداوة المسيحيين في هذه البلاد تجاه الطوائف المسيحية الأخرى، أقسى وأشدّ وقماً من عداوتهم تجاه المسلمين، حيث كانت شروط الاستسلام السهلة نسبياً، والتي ميزت الفتوح الإسلامية السلمية، تعد من أهم أسباب نجاح حركة الفتوح الإسلامية؛ لأنها كانت تحفظ لأبناء المناطق المفتوحة أرواحهم وممتلكاتهم، والحقوق المرتبطة بحرية العقيدة، وملكية الكنائس مقابل دفع الجزية نظير الدفاع عنهم، والتعهد بعدم مساعدة أعداء المسلمين، وعلى ما جاء في عهد عمر بن الخطاب لنصارى القدس، حيث كانت الضرائب في الفترة الأولى بعد الفتح، أقل من تلك التي كان البيزنطيون، أو الساسانيون يفرضونها سابقاً على سكان البلاد نفسها.

وقد استقر العرب بسرعة في المناطق التي فتحوها، ولكنهم كانوا منفصلين عن السكان المحليين، بشكل يكاد يكون تاماً، وذلك في بداية الأمر، فقد تحركوا في ثلاث مناطق في ثلاث مدن جديدة بالعراق، وهي: الكونية والبصرة، والموصل، واستقروا في الفسطاط بمصر أولاً، قبل أن ينتشروا بعد استقرار الأحوال، وتم بناء مدينة القيروان الجديدة، لتكون مركزاً لهم في شمال أفريقيا.

أما في بلاد الشام؛ فإن المسلمين لم يبنوا مدناً جديدة، ولكنهم اتجهوا للسكن في ضواحي

القسم الثاني، أوروبا والعالم الإسلامي

التطور التاريخي لصورة الآخر من القرن الأول حتى القرن العاشر الهجري، ومن القرن السابع إلى السادس عشر الميلادي.

لم يكن الدين هو السبب الأساسي في الصراع بين بني البشر في أي زمان ومكان، وإنما كان دائماً المبرر والغطاء لأطماع الاقتصاد، وطموحات السياسة، ونيران الحروب، يصدق هذا على العلاقة بين أوروبا والعالم الإسلامي، على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان، كما يصدق هذا على العلاقات بين المجتمعات البشرية الأخرى، ومن المثير أن هذه العوامل ذاتها تدفع أيضاً إلى التفاهم والتفاعل، بل والتقارب أحياناً، ويصدق هذا أيضاً على تاريخ العلاقات ما بين أوروبا والعالم الإسلامي، إذ كانت العلاقة بين الجانبين تعد نموذجاً للعلاقة بين الجيران حرياً وسلاماً، ومنافسة وتعاوناً، عداوة واعتماداً متبادلاً على الآخر، وهذا شأن البشر عندما يتجاوزون في كيانات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، ولا يكون للدين في مثل هذه العلاقات التي تموج بالحيوية والتفاعل، سوى دور المبرر والغطاء المتبادل.

كانت حركة الفتوحات الإسلامية الناجحة، والتي بدأت منذ القرن الأول الهجري، السابع الميلادي، قد قسمت عالم البحر المتوسط إلى ثلاث مناطق حضارية، وهي الحضارة البيزنطية التي تركزت حول القسطنطينية، وشملت ما بقي من أملاكها في آسيا الصغرى والبلقان التي تدين بالمسيحية الأرثوذكسية والحضارة العربية الإسلامية التي ضمت العواصم القديمة في شرق المتوسط وجنوبه، وعمقها البشري والجغرافي الممتد شرقاً صوب الصين، ثم

حضارة أوروبا في العصور الوسطى المبكرة التي تركزت حول الكنيسة الكاثوليكية بزعامة البابا في الفاتيكان بروما، وكانت خطوط التماس بين الحضارتين المسيحيتين، والحضارة العربية الإسلامية، التي تمثلت في آسيا الصغرى، وأعالي بلاد الشام، وجنوب إيطاليا، وجزر البحر المتوسط، ثم أسبانيا في الغرب، حيث قامت دولة مسلمة في (الأندلس) استمرت في الوجود حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، والمثير في الأمر أن نقطة التماس الأساسية في الشرق (الدولة البيزنطية)، ونقطة التماس في الغرب (الأندلس المسلمة)، سقطتا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، وذلك إيداً بيداء مرحلة جديدة من العلاقات بين العالم الإسلامي، والعالم الأوروبي، ولم تكن العداوة بين الطرفين مستمرة في كل الأوقات وفي جميع الأماكن، فمن وجهة النظر الأوروبية مرت العلاقات الإسلامية المسيحية بثلاث مراحل، فيما بين القرن السابع والقرن الخامس عشر الميلاديين، وفي أثناء هذه المراحل الثلاث، تغيرت المواقف الأوروبية من الرفض إلى المحاولات الواعية المتعاطفة لفهم الإسلام والمسلمين، ومن وجهة نظر المسلمين مرت العلاقات مع أوروبا بثلاث مراحل أيضاً، ولكنها مختلفة بطبيعة الحال، من الغزو إلى التجاهل، والازدراء، ثم العداوة، ثم التفاهم والاعتماد.

ويستدعي البحث في البعد التاريخي لهذه العلاقات محاولة تقسيمها إلى فترات زمنية، مما يساعدنا على الفهم والإلمام بالحقائق التاريخية المتوارية خلف ضبابية الهجمات، والهجمات المضادة على كلا الجانبين.

وتأثير الحركات المتصلة بالفتوح الإسلامية، والتي تشمل المشكلة التعريفية، والمعرفية، ثم

**تميزت الفتوح الإسلامية بالرفق
والسهولة؛ لأنها كانت تحفظ لأبناء
المناطق المفتوحة أرواحهم وممتلكاتهم
وحقوقهم المرتبطة بحرية العقيدة
وملكية الكنائس**



عدم التسامح، النموذج المصري، تأملات
وملاحظات ختامية.

في معنى التسامح:

التسامح مصطلح تردد بشكل لافت للنظر في
الأدبيات السياسية خلال السنوات الأخيرة، وقد
كثر استخدامه في مجال الحديث عن الجوانب
الدينية بشكل خاص، وربما استخدم على
استحياء في الحديث عن الحوار، والتعامل مع
الآخر، والقبول بالتعددية السياسية والثقافية
والاجتماعية أيضاً.

وهنا تبدو المقارنة واضحة من حيث إن هذا
المصطلح ينطوي بالضرورة على مفهوم يقول: إن
هناك خطأ أو خطيئة، ينبغي التسامح إزاءها،
ولكن الضرورة تفرض عليهم التسامح إزاء هذا
الآخر لسبب أو لآخر، ويقودنا هذا التفسير
بالضرورة إلى موقف المسلمين وأوروبا.

ثم خرج مفهوم التسامح من هذا الحيز
الديني الضيق، إلى رحابة الحوار الثقافي
والسياسي الذي نجم عن التطورات التاريخية
الموضوعية التي جرت على بلدان أوروبا الغربية،
وصار التسامح من شعارات الحياة الفكرية في
بعض البلاد، وأخيراً مع بداية التسعينيات من
القرن العشرين صار الشعار مطروحاً بقوة،

التصورات والمفاهيم الأيديولوجية والحقائق
التاريخية، التطورات التاريخية قبل الحروب
الصليبية، صورة المسلمين في كتابات الدعاية
الصليبية، الموقف في العالم الإسلامي، ثم بعد
الحروب الصليبية.

وعندما قاربت العصور الوسطى نقطة
النهاية، كانت أوروبا تعاني من اتساع الخطر
الإسلامي ممثلاً في الدولة العثمانية التي مدت
نطاق سيطرتها رويداً رويداً، بحيث استولت على
القسطنطينية ١٤٥٣م وحولتها إلى عاصمة
إسلامية.

ومع نهاية العصور الوسطى، صارت إدانة
الإسلام في الرؤية الأوروبية صورة كئيبة متكررة،
وبقي الإسلام والنبى محمد (ﷺ) لغزين بالنسبة
للفالبية الساحقة من أبناء الغرب الأوروبي الذين
استسلموا للصورة السلبية التي رسمت ملامحها
كتابات النخبة الأوروبية التي تحمل من الخيال
المريض أكثر كثيراً مما تحمل من الحقائق
الموضوعية.

أما على الجانب الآخر في العالم الإسلامي،
فعادة ما كانت السلطات الإسلامية متسامحة
تجاه رجال الكنيسة المسيحية وأتباعهم الذين
يعيشون في الدول الإسلامية.

ثم بدأت مرحلة جديدة من مراحل تطور
الآخر في وجدان الأوروبيين بشكل عام، ولكن
صورة الآخر الأوروبي في المنطقة العربية بعد
خضوعها للحكم العثماني منذ بداية القرن
العاشر الهجري، والسادس عشر الميلادي ظلت
ثابتة، حتى بداية عصر الاستعمار لتلك الدول.

القسم الثالث: مفهوم التسامح بين ثقافتين؛
أوروبا والعالم الإسلامي الذي يتمثل في معنى
التسامح، الأنا والآخر، أي نحن، وهم، في تاريخ

تميزوا في بعض المهن ذات المكانة الاجتماعية الراقية مثل: الطب والإدارة والمالية.. وغيرها.

وفي الختام، أثار المؤلف عدة تأملات وملاحظات ختامية: فقال: يُثير سؤال التسامح بالضرورة أسئلة أخرى تتعلق بحياتنا السياسية، والثقافية الراهنة.

فهل يمكن أن نشعر بالذات والهوية، ونحن نفتقر إلى الحوار والتسامح في داخل مجتمعاتنا. وهل يمكن أن نشعر بالذات والهوية، وقد رضيعنا لأنفسنا دور التابع المهزوم سياسياً وفكرياً، بعد أن تخلينا عن دورنا في صناعة حاضر البشرية ومستقبلها.

وهل نرفض تعاون العولة، خوفاً من الهيمنة، أم نحاول أن نكسب من العولة، التي ليست شراً كلها.

وهل نملك القدرة على هذه التفرقة والفرز في ضوء ظروفنا الراهنة؟

وأخيراً: هل يمكن أن نشعر بالذات والهوية، ونحن نستهلك ما ينتجه الآخر من إنتاج مادي، وفكري على السواء، أم ترانا سننتج ما يجعلنا شركاء للآخر، في صناعة حاضر البشرية ومستقبلها حتى يتسنى لنا أن نطالب الآخر بالحوار والتسامح، فما الذي يدفع الآخر إلى أن يرفع قوماً ارتضوا لأنفسهم دور التابع والمستهلك والمهزوم إلى مكانة الشريك والمنتج والند.

إن طبيعة الإجابة عن الأسئلة السابقة، هي التي سوف تحدد موقفنا من الآخر، وموقف الآخر منا، لتحقيق:

تسامح واعتماد متبادل.

أم عدم تسامح وإنكار وعداوة؟ ■

بعدما أثارت مسألة صدام الحضارات، ومسألة حوار الحضارات، التي تشكل القطب المواجه لمفهوم التسامح فبعد سقوط الاتحاد السوفييتي، وجدت الرأسمالية العالمية نفسها بحاجة إلى اختراع عدو جديد، بدلاً من الاتحاد السوفييتي الذي انحل، وفي فترة ما بعد الحرب الباردة، تعالت أصوات في أمريكا وأوروبا تقول زاعمة بأن المسلمين قادمون، وتظن قطاعات بارزة في الغرب، أن الإسلام خطر على الحضارة الغربية، ويبدو أحياناً أن موقف الغرب تجاه الشيوعية قد تم استساخه تجاه الإسلام.

ثم تكلم المؤلف عن الأنا والآخر، ونحن وهم، وعن تاريخ صدم التسامح، وأخيراً عن النموذج المصري قاتلاً،

هناك أدلة عديدة تشير إلى أن مصر بسبب ظروفها الجغرافية، وطبيعة التطورات التاريخية التي جرت عليها، كانت أرضاً للتسامح، والتسامح هنا يقصد بقبول الآخر على الأرض المصرية، واستيعابه داخل النسيج الاجتماعي والثقافي المصري المتجانس، حيث إن الحياة المصرية تقوم بالضرورة على التناغم والانسجام والتوافق بين سكان وادي النيل، الذي يبدو في شطره المصري من أسوان جنوباً، إلى سواحل البحر المتوسط شمالاً، بأنه شارع ممتد تتوفر فيه أسباب الحياة من خلال نهر النيل العظيم الذي يشق هذا الشارع بطوله من الجنوب إلى الشمال.

ومن ناحية أخرى حظيت الأقليات الدينية في مصر آنذاك بضمنان حرية العقيدة، بجانب حرية العمل وكسب العيش، وتأمين الأرواح والأموال، ونتيجة ذلك في أن العلاقات الاجتماعية بينهم وبين المسلمين قد اتسمت بالود والتسامح، وبرزت من بين اليهود، والمسيحيين المصريين أسماء أفراد